بين عراقين: من عراق الدولة الى عراق الوطن

د. عقيل عباس

الأزمات تختبر المعاني والاشخاص لأنها تفلح في استفزازهم. عربياً، قد يكون هذا هو الدرس الاهم والمغيب في الأزمة العراقية. ففي ثنايا هذه الازمة، كما هي حال الأزمات عادة، تترافق الازدحامات التي تشير الى مواقع هذا الاستفزاز. ففيما يزدحم كثير من وسائل الأعلام العربية بمختلف الطيف المعرفي العربي من رسميين وايديولوجيين ورجال دين واعلاميين وفنانين وادباء وغالبيتهم الساحقة تستهجن، في غضب استثنائي، السياسة الأميركية بشأن العراق، يزدحم، او يكاد، كثير من الشوارع العربية بأجساد متظاهرين محتجين يستفزهم غضب مماثل.

ليس ثمة جديد في هذا الغضب والاستهجان فعلى مدى العقود المنصرمة من الزمن العربي المسكون بالازمات والاوجاع كان الغضب والاستهجان السمتين الأبرز في الحياة السياسية العربية العلنية بشقيها الرسمي والشعبي. لكن واقع العراق الحالي يدحض هاتين السمتين ويدعو بغضب واستهجان مختلفين الى مقاربة عربية اخرى، رسمية وشعبية، لهذا الواقع المدجج بجراحات وآلام يصر العرب الغاضبون في الشوارع او المتحدثون من على منابر السياسة والاعلام على تجاهلها او، في لحظات الخجل السياسي النادر، على المرور عليها سريعاً، سريعاً جداً حد التسطيح السافر وغير الخجول. لم تكن اميركا ذات يوم مشكلة العراق الاساسية، كما انها ليست تلك المشكلة اليوم كما يصر العرب الغاضبون علناً. فمشكلة العراق الاساسية عميقة الغور بعمق سوء الفهم العربي لها وفوضى الحل الاميركي المقترح لها. انها مشكلة دولة اصرت، منذ لحظة بدئها المفتعلة، على استنشاق هواء فاسد في فضاءات موبوءة فأنتهت كائناً مشوها قمعياً متميزاً بقسوته ودمويته، فيما ظل الوطن جنيناً لم ير ضوء الشمس، معتكفاً في رحم انتظار يبدو في هذه اللحظة المأزومة ابدياً ومخيفاً.

لم يؤسس في العراق وطن ولم يوجد فيه شعب اذ لم تتطور فيه طقوس الاوطان ولا خصائص الشعوب. ليس في العراق الان، كما لم يكن فيه سابقاً، زعماء-رموز يتمتعون بما يتمتع به الرموز عادة من سلطة معنوية تتجاوز الانتماءات القبْلية لتشمل كل الطيف الشعبي المتنوع دينياً عرقياً وايديولوجياً. في العراق زعماء لطوائف وقبائل واعراق واحزاب لم تغادر سلطاتهم المعنوية حدود الفئات التي يمثلونها. لامس زعيم واحد فقط حدود الاستثناء دون ان يصبح فعلاً ذلك الاستثناء المتمنى. قد يكون ذلك عبد الكريم قاسم الذي لولا اختصاره الدولة في جاذبية شخصه السياسية، ربما دون قصد، وتغييبه تقليد المؤسسات الفتي الذي ارساه العهد الملكي، لكان له ان يصبح سابقةً مهمة تدفع البلد اكثر نحو طقوس الوطن الصحية. ليست في العراق ايضاً مناسبات وطن واحتفالات شعب. عيد نوروز، العاشر من محرم، المولد النبوي، ولادة السيد المسيح، الرابع عشر من تموز، وغيرها كلها ايام احتفاء وتذكر لطوائف وأعراق واحزاب وليست لشعب باكمله. كما ليس في العراق معانٍ او تقييمات مشتركة ترسخ وقائع متفق عليها فتأريخ البلد تتوزعه قراءات فئوية تخلو من اتفاق على الحد الادنى على الإحداث الاساسية التي يفترض انها صاغت هوية البلد. هل يمثل تاريخ العراق قصة النهوض القومي ام الأيمان الديني ام الغضب الألهي ام الازدهار الاقتصادي ام الاضطهاد العرقي، ام الظلم الاجتماعي؟ ايها تمثل لحظة التعريف الاولى التي تنظم ايقاع اللحظات الاخرى في صيرورة واحدة تختصر جهد شعب وقصة وطن؟

حدثان اختصرا على نحو بسيط وموجع مأزق فقدان القيم الجمعية التي تميز الشعوب ذوات الاوطان. الاول كان اعصار النهب والتدمير الذي اجتاح البلد على يد ابناء له مفترضين عقيب لحظة التخلص من نظام القسوة. تمثل وجع تلك اللحظة في ان النهب لم يكن ذكياً اوحساساً او انتقائياً من طراز اقتصاص المنهوبين العادل من ناهبيهم السابقين في لحظة سقوطهم. كان نهباً عشوائياً، شاملاً، قاسياً، وبليداً لم يميز في خضم نشوة اقتصاصه السافر ملامح وطن كانت تحاول عبثاً ان تتشكل في لحظة فرح جمعي نادر بالسقوط. لأن النهب لم يكن منضبطاً وواعياً، كانت تلك الملامح المتشكلة في عجالة خجولة احدى ضحاياه واهمها، فمع المدارس والمستشفيات والمكتبات والمباني الأخرى المنهوبة، افلح الناهبون في سرقة تلك الملامح المؤقتة. على نحو غريب وغاضب اثبت الناهبون والمدمرون على مرأى عالم تفرج مذهولاً ان المسافات المفترضة بين الدولة والوطن معدومة تماماً لان الوطن، برغم اطلالة ملامحه المستعجلة، لم يكن موجوداً اصلاً بسبب تمدد الدولة المرضي كالسرطان الذي يمعن في الالتهام ليزداد جشعاً وإمراضاً. لم يكن الناهبون والمدمرون ابناء شعب بل كانوا افراداً ينتمون إلى عشائر وطوائف واحزاب ومدن يقع الوطن خارج دائرة الانتماء المحسوس بالنسبة لهم. ما من شيء سرق فرحة العراقيين برحيل جلاديهم مثل فعل عراقيين اخرين استغرقتهم حمى السلب والتدمير. هل يشابه فعل الشعوب الحية باوطانها فعل هؤلاء العراقيين ببلدهم في اشد لحظات فرحه الشحيح اصلاً؟

يتعلق الحدث الثاني بالحيرة العامة التي طبعت مأزق اختيار العلم العراقي للمرحلة الانتقالية. ففي خضم السعي المبرر لاستبدال علم نظام صدام، لم يجد العراقيون في تأريخهم علماً يرمز الى قيم جمعية يتفقون عليها يستبدل علم نظام يكرهونه. كما لم يكن بامكانهم ان يتفقوا على قيم كهذه في العجالة القانونية والسياسية والزمنية التي تلت الاطاحة بالنظام. بررت هذه الحيرة مفارقة العودة، بعد تجميل بسيط لرمز قبيح، الى علم اتفق العراقيون على الفرح برحيل المعاني السياسية التي مثلها. قد يبدو غريباً ان يفرح العراقيون دون ان يعرفوا كيف يوثقون فرحهم من خلال علم-رمز يناسب فرحهم. وقد يبدو غريباً ايضاً ان يجرى فرحهم في ظل علم ارتبط بحزنهم. تكون هذه الغرابة مبررة في حالة الشعوب-الاوطان لكن العراق ليس واحداً من هذه وقصة العلم-الحيرة هذه تذكير بان الشعب-الوطن في العراق لا يزال مشروعاً مؤجلاً منذ ان تمنت المخيلة الاستعمارية العراق امتداداً مضافاً يساهم في إغناء مركز امبراطورية غطت اسلابها نصف اليابسة بعد خروجها منتصرة من مغامرة الحرب العالمية الاولى.

منذ ثمانين عاماً امتلكت العراق مؤسسة الدولة التي ولدت قيصرياً على يد طبيبها البارع وزير المستعمرات البريطاني آنذاك ونستون تشرشل، في ساعة ضيق استعمارية صنعتها اشد الاحداث العراقية اقتراباً من معنى الوطن- الجنين، ثورة العشرين. على نحو ما، كانت الولادة البريطانية المصطنعة والمستعجلة اجهاضاً لولادة اخرى حقيقية بدت لوهلة وشيكة، بل حتمية، في ظل تماسك نادر ابداه عراقيو ١٩٢٠، وكان متوقعاً له ان ينضج الجنين المنتظر في هيئة وطن وليد لم يولد ابداً. فشل مشروع الوطن حينها لان تماسك ١٩٢٠ كان خاطفاً والاوطان لا تولد في لحظات خاطفة بل من مخاضات تأريخية طويلة. بعد ان اختطفت مؤسسة الدولة بنجاح مشروع الوطن-الشعب، شرعت هذه المؤسسة في تعزيز هذا الأختطاف ليحمل ثقل الحقيقة وقوة الواقع غير القابل للشك حتى اذا اضاف الزمن عمقه الطبيعي إلى مشروع الخاطفين اكتسبت الدولة الخاطفة شرعيةً ماسخة ارسلت من خلالها مشروع الوطن-الشعب في غياهب نسيان لم يستطع ان يخرج منه برغم تشبث ذاكرة المعاندين والحالمين به.

في العراق عشائر وطوائف واعراق ومدن مختلفة تجاورت وتفاعلت مع بعضها الاخر على نحو ما لكن هذا التجاور والتفاعل لم يحولها الى شعب وبالتالي لم يصبح الحيز الذي ضم تجربة التجاور والتفاعل هذه وطناً لان مؤسسة الدولة لم تفلح في تطوير هذه التجربة لتصنع منها شعباً ووطناً. اصرت مؤسسة الدولة في العراق على انتقائيتها العرقية والطائفية والأيديولوجية فأصبحت مشروعاً للعزل والاقصاء بدلاً من القبول والانتماء. خلقت هذه المؤسسة من انتقائيتها السمجة نظاماً تراتبياً صارماً اجزل في عطائه للعراقيين الذين استوفوا شروط انتقائيته وافرط في قسوته تجاه الذين لم يستوفوا منهم تلك الشروط. هكذا افلحت مؤسسة الدولة العراقية في احباط تجربة التفاعل والتجاور العراقيين لتفشل في اخر المطاف مشروع الوطن-الشعب.

في سني صدام المجدبة، وصلت مديات هذا الاحباط إلى تخوم غير مألوفة من تناقضات العطاء والقسوة فتراكمت الاحتقانات وازدادت وجعاً الى حد جعل الاطاحة الاميركية الخاطفة بصدام ومؤسسة الدولة التي ورثها وعززها لحظة فرح عراقي نادر واستثنائي، خصوصاً لمن دفعوا ثمن انتقائية الدولة العراقية عناء وحرماناً. على نحو من المعاني يشاكس ما هو مألوف، لم تكن الدبابات الاميركية التي شقت طريقها الى وسط بغداد في اخر نهار التاسع من نيسان الفين وثلاث دبابات ظالمة كما لم يكن العراقيون، الذين اعتلوا احداها في فرح غامر وجريء ليستعينوا بها على اطاحة تمثال رئيس المؤسسة التي ظلمتهم، خونة. فعلى نحو غير مقصود وغبي، سمحت مؤسسة الدولة العراقية للعراقيين الفرحين في تلك اللحظة، واظنهم أغلبية هائلة، باعادة تعريف معاني الاحتلال والتحرير في ضوء العلاقة الجائرة التي ربطت هذه المؤسسة الحاكمة بمحكوميها المظلومين. اليست المعاني وليدة التجارب؟ اليست التسميات توصيفات لخلاصة تلك التجارب؟ اليست هذه الخلاصة العراقية مشروعة وتستحق ان تؤسس عليها وقائع وأمنيات؟ في اخر الامر هكذا تصنع الشعوب-الأوطان معانيها، من خلال صيرورة المخاضات المتفردة في وجعها وحميميتها، معان يصعب لمن لم يعش لحظات المخاض او لمن لم يتفاعل مع قلق الخائضين فيه، ان يدرك المعنى الوليد، او ان يتفهم خصوصيته الحميمة او ان يتعاطف مع شوق المنتظرين للحظة الوصول النهائية.

هنا تكمن نقطة الافتراق الكبرى بين العراقيين والعالم العربي بمثليه الرسميين والشعبيين الذين احترفوا الغضب بشأن العراق. لم يفهم العالم العربي يوماً حزن العراقيين، ولم يتعاطف مع خوفهم فظلت احزان هؤلاء ومخاوفهم ،كحالها دائماً، شأناً سرياً مغلقاً ليس لأن حامليها آثروا عدم البوح بها ، بل لندرة المستمعين لها وشحة عطفهم، ربما لان لحزن العراقيين نكهة اخرى تختلف مما اعتادته الذائقة العربية ذات الحساسية الانتقائية. يختلف الحزن العراقي عن سواه في انه يرفض ان يسافر في طرق التجيير العربية المعتادة فلا يتتبع مصادر جرحه ليوصلها دوما بالآخر الغربي الذي امتهنت الذات السياسة العربية اتهامه بكل جراحنا والاحزان المتأتية منها. يعاند الحزن العراقي خريطة الطريق العربية المألوفة ليسافر في اتجاه معاكس ويصل، مرة اخرى وبمشقة مشاكسة، الى العراق بمؤسسة دولته الظالمة، مصدر الجرح، والى العالم العربي الذي أمد الجارح بأدوات الإيذاء واغلق اذنيه وقلبه عن سماع تأوه الجريح والتعاطف مع ألمه. لم يكتشف العالم العربي التراتبية الظالمة لمؤسسة الدولة في العراق ليس لأنه عاجز عن الاكتشاف بل لأن المُكتَشف لا يُغري المُكتشِف فالاول يقع خارج ذائقة الثاني الاتهامية والإنتقائية. ثم جاءت جثث الاف العراقيين، اطفالاً ونساء وشيوخاً ورجالاً، التي ظهرت من بطون الارض في مقابر الدولة الجماعية والمجانية لتمنح العرب غير المتعظين فرصة اخيرة لإكتشاف وخجل متأخرين لكن يبدو ان رائحة الموت العراقي الكثيف والموحش لم يكن مقدراً لها ان تصل إلى أنوف العرب الرسمية والشعبية لتعمق فعل الشم الحساس والذكي الذي لم تطوره الحاسة العربية المتخثرة. على نحو شبيه، لم تستقر صور الاطفال الموتى بلعبهم الصغيرة في الضمير العربي وتنتج تعاطفَ ما بعد الاوان، تعاطفاً يقدم اعتذاراً خجولاً متلعثماً عن صمت وتجاهل سابقين. مرت صور موتى العراقيين سريعاً جداً في الذاكرة العربية ولم تفلح ان تجد لها مكمناً يضيفها هناك. قررت ذاكرة الانتقاء العربي المخيف ان ضحايا (ابو غريب) في العهد الاميركي القصير، وليس في عهد الدولة الصدامية الطويل، هم وحدهم الأولى بالتذكر وجراحهم المصورة احق بالعلانية وموتهم المحدود اجدر بالبكاء.

أما اميركا، فانها ،برغم خطاياها الفادحة، لم تدع الإكتشاف المتأخر يفوتها بخلاف العالم العربي. على امتداد سني الجدب العراقي الطويلة، لم تمد اميركا يداً مرحبةً تماماً للعراقيين. وكحال العرب المنتفعين، استفادت اميركا من مؤسسة الدولة في العراق في لحظات احتياجها الشديد إليها، برغم وعيها بالظلم الهائل الذي تمارسه هذه المؤسسة، ثم لتتجاهلها وضحاياها عند انتفاء الحاجة اليها. على هذا النحو النفعي، انزلق الضمير الاميركي بهدوء فائق نحو ثلاجة انتظاره شديدة التبريد والعزل ليتصلب هناك على مدى التسعينيات. استمدت ثلاجة النسيان البارد هذه قابلية عزلها المفرط والمريح من مصدات الاقتصاد والسياسة والسلاح التي بناها المارد الاميركي حول العراق اثر حماقة غزو الكويت. إقتصادياً، كانت العقوبات الدولية المصد الأول ثم تلاه سريعاً الاحتواء المزدوج مصداً سياسياً، ترافقه مناطق الحظر الجوي مصدراً عسكرياً. حولت هذه المصدات الثلاث البلد الى قدر ضغط كبير نافست قسوته قسوة سجن دولة الامن الصدامية. في قدر الضغط هذا لم تميز اميركا المسافة الواضحة التي تفصل العراقيين المظلومين عن دولتهم الظالمة فساوت بين الاثنين في تسليط ضغطها. بهذا المعنى ايضاً شابهت اميركا العرب بإغلاقها عينيها وقلبها على عناء العراقيين حتى فاجأها انتحاريو بن لادن الطائرون بغيظهم نحو اكثر المباني امتداداً في السماء واشدها اكتظاظاً باهل الارض. عندما اهتز برجا نيويوك الكبيران في تلك اللحظة الدموية، اهتزت معهما الثلاجة الاميركية الفارهة وفقدت قدرتها على التجميد والعزل. وقبل ان يجد ضحايا البرجين المدمرين طريقهم الى قبورهم وقبل ان تكفكف اميركا دمعها الحار الذي لم تسفحه سابقاً بهذه الغزارة العلنية، كانت نقطة ضوء اميركية صغيرة وغامضة تكبر على مهل لتتخذ شكل الصاعقة الباحثة عن موضع ملائم لتفريغ حزن العملاق الجريح وغضبه. ولان حجم الصاعقة احتاج إلى موضع تفريغ اكبر من افغانستان شبه المنسية، ظهر العراق المنسي تماماً على خارطة الحدث ليكون موضع التفريغ الثاني الارحب والأكثر ملاءمة.

اكتشف الغضب الأميركي العراق ليس حباً بالعراقيين وبإنقاذهم من مؤسسة دولتهم الظالمة، بل لان خريطة الدرب الاميركية الجديدة احتاجت، للوصول الى مقصدها الأخير، إلى العراق محطةً مهمة تتفرع منه طرق جديدة. لم يسبب سقوط البرجين صحوة ضمير اميركية متأخرة تجاه العراقيين بل استفاقة عقل سريعة وصائبة بشأن خطورة اختصار العراقيين في شخص دولتهم. أول مرة تتقاطع الدروب العراقية الثانوية مع الدروب الاميركية الرئيسة على نحو صحيح يميز بين مسارات الدولة الظالمة في العراق وضحاياها المظلومين. اذاً، للعراق في المخيلة الاميركية الجديدة المأزومة بذاكرة البرجين المدمرين حكايته الخاصة التي لا ترتبط بالعراقيين كأناس قدر ارتباط اميركا بمخاوفها الجديدة التي وجدت فيها للعراقيين محلاً مُرحباً. اميركا "المنقذة" كانت مصادفة عراقية غير متوقعة تكاد، في لحظة تحول غريبة واستثنائية، تعوض العراقيين عن كل سوء الحظ العربي والدولي الذي رافقهم كالجراب طوال سني قمع الدولة العراقية لهم. في تلك اللحظة، اكتشفت اميركا العراق على نحو لم تكتشفه من قبل اذ اتجهت هذه المرة ، ولأسبابها الخاصة، الى العراقيين لا الى دولتهم القامعة كما فعلت من قبل. أيفترض بالعراقيين المسحوقين بظلم دولتهم، والمملوئين مرارة من تجاهل العرب وسواهم هذا الظلم، والعاجزين عن تغييره برغم تكرار المحاولة، أيفترض بهم ان يقولوا لا لدعوة الانقاذ الاميركية؟ ستكون هذه ال "لا"، لو صدرت، انتحاراً عراقياً بليداً وعقيماً شاء حسن الحظ ان يدرك العراقيون، بأغلبيتهم الواضحة، بلادتها وعقمها. لكن هذا القبول الناضج علامة بدء واعدة فقط تحتاج إلى ان تتواصل من خلال الاصرار على ان خريطة الدرب العراقية لن تبلغ محطتها الاخيرة الا بالوصول الى الوطن-الشعب. قد تكون مفارقةً ان العبور الاميركي نحو الامن الدائم والوادع يشترط هذه المرة المرور بالعراق الوطن-الشعب وليس بالعراق الدولة كما حدث ابان الانتفاع الاميركي بهذه الدولة في حربها ضد ايران. هذه مفارقة حسنة الحظ ولان حسن الحظ ليس مألوفاً عراقياً، ليس مستغرباً سعي العراقيين للإفادة من هذه المفارقة بأقصى ما يمكن من اجل الوصول الى الوطن-الشعب، حتى ان كان هذه الوصول متأخراً وعلى عكاز اميركي.

في العراق مقدمات شعب ووطن لم تصل الى نتائجها المتمناة فظلت تلك المقدمات تنتظر مقاربة اخرى، غير مقاربة الدولة العراقية على مدى الأعوام الثمانين المنصرمة. الان وفي ضوء الإستثمار الاميركي غير المسبوق في العراق، لن تكون رحلة العراقيين الشاقة على خريطة دربهم الجديد ذات جدوى ما لم تقتنص فرصة هذا الاستثمار وتوظفه باتجاهات تؤدي الى وصل هذه المقدمات بالنتائج المرتجاة، حتى إن غضب العرب الرسميون والشعبيون ليس للعراقيين الحق في الفشل او التأجيل، اوالتباطؤ هذه المرة، فحسن الحظ الأميركي تجاه بلدهم شحيح جداً وقد لا يدوم طويلاً. لكنهم لا يزالون حتى الان يعيشون احدى لحظاته غير المتوقعة، برغم غزارة دمهم المسفوح غدراً على يد اشقاء وجيران وامتدادات هؤلاء العراقية لإجبارهم على التخلي عن مشروع الوصول الى الوطن-الشعب.

وهم الارهابيين الكبير

د. ثائر كريم

حدود نجاح الارهاب

نجحت قوى الارهاب الظلامية في زج بغداد وبعض المدن العراقية الاخرى في وضع امني خطير، بعيدا عن الاستقرار المنشود. فعلت ذلك في وقت كانت تنفتح فيه ابواب الخير على مصاريعها على أهل العراق. باباً بعد باب ليمد الجميع ايديهم (سواسية وليس فئة مستبدة لوحدها) على ثرواته الهائلة. وليقبل الكل- بحكم الضرورة التاريخية والمنطق الانساني- بحتمية تنوع المكونات وتعدديتها، تنوع الطبقات والمذاهب والطوائف، تعدد الافكار والاحزاب والميول، في اطار سلام وطني يشمل الجميع.

لكن نجاح مجموعات الارهاب الظلامية في خلق مستنقع الامن هذا هو نجاح محدود في واقعه، نجاح منغلق على نفسه، متلاش في جوهره وافقه، وان سبب محدودية نجاحه وانغلاق افقه وقرب تلاشي مستقبله هو تحرك الارهاب والتمرد المسلح في وسط اجتماعي منغمس حتى نخاعه في الماضي، وسط يستلهم معطيات سيطرة الاقلية وروحها الاستعبادي، ويمتح من صور الفروض القسرية والهيمنة الطغيانية على موارد البلاد بشرا وثروة، وسط لا يعيش إلا على ماضيه غير العادل.

وهم العودة

تعيش مجموعات الارهاب الاسود ، باختصار، في وهم كبير أسمه (وهم العودة).

فالبعثيون الصداميون يحلقون في هذه المرة، ايضا، عن طريق الانقلاب والاساليب الخبيثة والخداع والتضليل.

ان بعثيي صدام حسين ورموز الشمولية الطائفية وقادتها منغمسون، اذن، إلى النخاع بوهم القدرة. لا يزالون منغمسين في هذا الوهم بعد ان غرقت البلاد في طوفان مآسيهم وكوارثهم ومهازلهم وطواغيتهم.

وللاصوليين الاسلاميين وهمهم الخاص، ايضا. وهم اعادة مجد (تليد)، مجد غامض بعيد كان فيه الامير صاحب السطوة يأمر فيطاع، لا عليه سوى تفسير الكتاب المقدس بما يتراءى له ليلزم البشر بتطبيق ما يتفتق عنه عقله، وهو مجد شمولي سلفي يرى البشر مطية للاهواء واداة للسخرة في عالم بلون واحد فقط، عالم لا علاقة له بمنطق العصر وما فيه من حرية للعقل البشري وضمير الانسان وحقوقه، فكل مظاهر العصر وروحه التي لا علاقة لها بصورة (الشرعية) الدينية سلفيا والتي يتخيلها هؤلاء الاشرار تدخل في باب المحرمات الكبرى، إذ يدخل كل من يريد ان يحيا زمننا المعاصر في خانة الطوائف الممتنعة عن تطبيق شرائع الإسلام، ولابد من مقاتلة هذه الطوائف بالقوة والعنف، ولا يهم ان يسقط اي عدد من الضحايا الابرياء اثناء هذا الجهاد. يجب قتال الجميع، وسيبعث الأبرياء يوم القيامة، كلا على نيته.

من الواضح ان بعثيي صدام حسين والاصوليين الاسلاميين يشتركون، عضويا، في الوسائل والغايات (وان اختلفت في بعض الوجوه كما تبين تجاربهم التاريخية، مضامين المجتمعات التي يريدون اقامتها) فهم يشتركون، اولا وقبل كل شيء، في تبني العنف والقسوة والارهاب الاعمى والخداع والتضليل وسيلة اساسية لبناء الدولة المنشودة، ويشتركون ايضا، في تثبيت حكم القلة (بحكم القوة) في اي مكان يقيمون فيه سلطتهم، في المجتمع والدولة والبيت والشارع.

يتغذى وهم البعثيين الصداميين والاصوليين الاسلاميين على ما يظهر وكأن هؤلاء الاشرار باتوا يتحكمون بالمبادرة. وهو مظهر زائف في جوهره.

لا مصالحة مع الإرهاب بل محاكمات

السلام الوطني سلام كل سكان هذه البلاد مع انفسهم ومع العالم وهو مطلب يلهج به لسان حال كل انسان مسالم وذي ضمير، في بغداد والموصل والبصرة، في الفلوجة وديالى وأم قصر والسليمانية، في المدن الكبيرة والصغيرة، في الريف والقصبات، في كل مكان، حقا. السلام الوطني المطلوب هو شكل الوحدة والائتلاف وقبول الاختلاف، ايضا وبالضرورة، في اطار هذه الوحدة وفي ذات الوقت. العراق، اذن، وطن ثابت لكل مكوناته المتنوعة.

لكن الوحدة الوطنية شيء والتعامل مع قوى الارهاب الظلامية شيء آخر. فهذه القوى- بجوهر وجودها ومعنى افعالها وواقع اهدافها- لا تريد سلام العراقيين الوطني، لا تريد سلام الانسان مع نفسه ومع محيطه الاجتماعي وبيئته الطبيعية، انها قائمة (اصلا) وتعمل (فعلا) على نبذ منطق الوحدة والاختلاف في اطار الوطن الواحد، وان مثالها التاريخي القريب والبعيد قد قام كليا على فرض الجزء الاصغر على الاغلبية باسم الوحدة، فرض الطائفة الصغيرة الواحدة على كل عالم الطوائف والملل والافكار والاحزاب والقيم، باسم الوطن وبالقسر والعنف والقهر. واليوم، ايضا، باسم العراق ومناهضة الاحتلال وباسم الاسلام. واليوم، خصوصا، باستخدام كل ترسانة الارهاب وهمجيته.

ليس هناك شيء اسمه (المصالحة) مع هذه القوى. فهي ليست متصالحة مع السلام نفسه. وهي قوى مجرمة في كل افعالها. وليس هناك سوى العدل. وليس هناك سوى دولة القانون ما يجب ان تقدم الحساب لها. فالبعثيون العاديون تصالحوا مع انفسهم ومع بلدهم العراق منذ لحظة سقوط الاستبداد وربما قبله بكثير. وتصالح جل انصار الحركة الصدرية مع أنفسهم ومع وطنهم واكثرهم صادقون في طلب السلام الوطني.

اما مجاميع البعث الصدامية وقوى الارهاب الاصولي السلفي فالعراق ليس لها وطنا لانها ترفض العيش بسلام ضمنه بل لا تريد الا ركوبه.

حتمية فشل الارهاب

لن يدمر الارهاب بلدا لا يريد ابناؤه سوى العدل. ولن يردع الارهاب، ابدا، شعبا طيبا هاجسه ارادة الاستمرار المسالم في الحياة، شعبا صبورا عاش على الضيم وهو يعرف حق المعرفة ان بلاده تضج بالثروة بشرا وموارد. لن يحول الارهاب دون تكوين دولة وطنية قوية. دولة تقوم على اكتاف الانسان العراقي الذي يتوجه لعمله حاملا كيس غدائه البسيط، بيضا وخبزا وطماطة. دولة، تبكي الامهات فيها فلذات اكبادهن من ضحايا الارهاب، فانهن يستنهضن فينا ارادة الدفاع عن الخير والامن والسلام. دولة بات جل شبابها يدرك ان اعادة العراق للعصر استحقاق انساني لا محيد عنه. دولة ينهض فيها مهمشو الامس بالملايين وبجرأة منقطعة النظير لقبول التحدي الارهابي والتوجه عن قريب لصناديق الاقتراع.

ليس المطلوب سوى ان ترتفع القوى السياسية، تلك القوى التي تمتلك المصلحة المباشرة في تغيير الاستبداد والشمولية الفئوية، الى مستوى مسؤوليتها التاريخية وتستجيب لضمير الشعب العراقي. عليها ان تعي خطورة وهم الارهابيين الكبير وتدرك قوته المدمرة. المطلوب منها بالحاح ان تدعو الناس وتقودهم في الميدان، في الشارع والمصنع والمدرسة والمعهد، للتعبير عن خوض الكفاح سلميا وجماهيريا مرة واخرى ضد ألارهاب والارهابيين.

وليس المطلوب ايضا سوى ان تعمل الحكومة القائمة واللاحقة على تنقية مؤسسات دولة القانون العراقية الجديدة كليا من عناصر الثورة المضادة، من بعثيي صدام حسين والاصوليين الاسلاميين، وهابيين وقاعديين وسواهم. ان تعمل على شد عزيمة مؤسسات الجيش الوطني العراقي الحديث ومؤسسات الشرطة العراقية الحديثة ومؤسسات الامن العراقية الجديدة.

فالقضاء على الارهاب اصبح قاب قوسين او ادنى.

ولكن لا قضاء للارهاب بدون تحشيد ارادة الخير والسلام عند العراقيين ومدهم بالقوة والجرأة لاشراكهم في تأمين الامن الاجتماعي في البلاد واستقرارها. تلك هي مهمة القوى السياسية الحية.

الا تنتهي مهزلة (بل مأساة) تغييب دور الناس في العراق حتى الان؟

لا استقرار في العراق بدون دولة قانون لها مؤسساتها الامنية والبوليسية المناسبة. تلك هي مهمة الحكومة العراقية الان وفي المستقبل.

الا يجب على الحكومة ان تظهر للملا جديتها في تثبيت دعائم دولة القانون الوطنية و اخلاصها في اجتثاث وهم الارهابيين الكبير من اساسه؟

على زعماء العملية السياسية في عراق اليوم وابطالها العراقيين مواجهة الارهاب عبر اقتلاع هذا الوهم من جذوره.